نشأة الدراسات الكلاسيكية في مصر:

رؤية درامية

د. ماجدة النويعمي

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

لاشك أن الدراسات الكلاسيكية قد وضعت في الآونة الأخيرة للمساءلة على الساحة العالمية، وأخذت الدراسات الكلاسيكية في أوروبا وأمريكا تراجع نفسها. ونشر العديد من الأبحاث الجادة من أجل تقييم الدراسات الكلاسيكية في عالم اليوم، وفي سبيل ذلك اهتم الدارسون بالتركيز على استقبال الكلاسيكيات قديما وحديثا،لمعرفة طبيعة هذا الاستقبال وما طرأ عليه من تغيرات. وخرجت علينا أبحاث متخصصة بعبارات مثيرة عن أزمة الدراسات الكلاسيكية الآن، ومشكلة الدراسات الكلاسيكية[١]، والكلاسيكيات بين الدراسات الإنسانية القديمة والحديثة[٢]، وكيف نقرأ الكلاسيكيات[٣]، وما إلى ذلك من العبارات التي ترددت ولا زالت تتردد بين مجموعة من كبار الكلاسيكيين في العالم.

في هذا السياق وبمناسبة مرور مائة عام من الدراسات الكلاسيكية في مصر، يمكننا أن نراجع وضع هذه الدراسات في بلادنا منذ نشأتها، على مستويات عدة وبمعالجات متنوعة. ولعل أول خاطر يجول في عقل كل مصري متخصص في الدراسات اليونانية واللاتينية فيما يتعلق بنشأة هذه الدراسات في مصر هو ما قاله عميد الأدب العربي طه حسين في عام ١٩٣٨، في كتابه الشهير: *"مستقبل الثقافة في مصر"*[٤].

ولكني لا أزعم أن هذا الكتاب هو الموضوع الأساسي لهذه الورقة بالرغم مما له من أهمية بالغة لا يمكن إنكارها[٥]، وهو ما قد يطرحه غيري من الباحثين، وإنما آثرت أن تكون كلمات طه حسين هي المنظار الذي أنظر من خلاله إلى

الموضوع الذي تخيرته وهو الرؤية الدرامية لنشأة الدراسات اليونانية واللاتينية في مصر.

ومن هنا أطرح في هذه الدراسة ثلاثة محاور، يؤدي كل محور إلى ما يليه:

١- المحور الأول هو السياق العام للدراسات الكلاسيكية في عالم اليوم من منطلق أن هذا هو الإطارالذي أضع خلاله الرؤية الدرامية التي تخيرتها لنشأة الدراسات الكلاسيكية في مصر.

٢- المحور الثاني هو طه حسين ونشأة الدراسات الكلاسيكية في مصر، وهذا هو المنظار الذي أنظر من خلاله إلى العمل الدرامي موضوع هذه الدراسة.

٣- المحور الثالث هو الرؤية الدرامية التي قدمها أحمد عتمان في مسرحيته الموسومة *"معيز البهنسا"*، وذلك في سياق وإطار المحور الأول، ومن خلال منظور المحور الثاني.

بالنسبة للمحور الأول وهو السياق العام للدراسات الكلاسيكية في عالم اليوم فأبدأه بعبارة مقتبسة من الكاتب المسرحي الفرنسي الشهير أندريه جيد ، في مسرحيته *"ثيسيوس"* التي كتبها عام ١٩٤٤، وترجمت إلى الإنجليزية ونشرت عام ١٩٤٨. يقول جيد:

"حين التقى دايدالوس بثيسيوس، وهو على وشك أن يدخل اللابيرينث (التيه)، قدم له النصيحة التالية بخصوص خيط أريادني: هذا الخيط سيكون هو الرابطة بينك وبين الماضي. عد إليه، عد إلى نفسك، فلا شيء يمكن أن يبدأ من لاشيء.إنه من ماضيك، ومما أنت فيه الآن سيأتي ما ستصير إليه."

هذه النصيحة هي عين ما ينادي به الآن كبار الكلاسيكيين في العالم للخروج بالدراسات الكلاسيكية من أزمتها الحالية في الغرب[٦].

ولعل أبلغ وسيلة للتعبير عن هذا المحور هي النظر إلى الاهتمام العالمي باستقبال الكلاسيكيات في العصر الحديث، سواء أكان ذلك على المستوى العالمي، خاصة في أوروبا وأمريكا، أم على المستوى المحلي في مصر.

ولعلي محقة إذا قلت إن الشاعر الناقد الأمريكي الأصل، البريطاني الجنسية، ت. س إليوت[٧]، له بصمته ودوره الفاعل في طريقة استقبال الكلاسيكيات في العالم الغربي في العصر الحديث[٨] منذ نشر مقاله "التراث والموهبة الفردية"، في عام ١٩١٩، فهو يرى التراث سجلا للعلاقات بين الأعمال الأدبية التي تنتمي لكافة العصور وليس بين كتاب بعينهم كأفراد[٩]. والملاحظ أن تراث الدراسات اليونانية واللاتينية ارتبط في الفكر النقدي الغربي بعبارة "الثقافة العالية الراقية"[١٠].

شغلت مسألة استقبال الكلاسيكيات الدارسين قديما وحديثا، ولعل من أبرز الدراسات عن استقبال الكلاسيكيات قديما، الكتاب الذي ألفه واحد من كبار الكلاسيكيين في العالم عن التراث الكلاسيكي، وهو جلبرت هايت، في عام ١٩٤٩ ، يقول هايت في مقدمة كتابه[١١] هذا:

"عالمنا المعاصر بعديد من الطرق هو استمرار لعالمي اليونان وروما... وفيما يتعلق بمعظم ممارساتنا الفكرية والروحية، فنحن أحفاد الرومان، وأحفاد أحفاد اليونان. ورغم أن مؤثرات أخرى تضافرت لتصنع منا ما نحن عليه الآن، إلا أن التيار اليوناني-الروماني كان واحدا من أقواها وأغناها. وبدون هذا التيار لكانت حضارتنا ليست فقط مختلفة، ولكن لكانت أكثر فقرا، ولكانت عبارة عن شظايا، ولكانت أقل فكرا، وأكثر مادية- وفي الواقع فإن أي ثروة قد تجمعها حضارتنا، وأي حروب قد تخوضها، وأي اختراعات قد تقدمها، ستكون أقل جدارة بأن تسمى حضارة لأن منجزاتها الحضارية ستكون أقل عظمة".

وتوالت الدراسات في الغرب، بلا توقف حتى يومنا هذا، عن استقبال الكلاسيكيات، ولعل من أهم الدراسات الحديثة في هذا المجال المجلد الذي صدر في نهاية عام ٢٠٠٧، عن استقبال الكلاسيكيات في العالم كله، ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤلف *"معيز البهنسا"* كان له إسهامه في هذا المجلد، ممثلا ومتحدثا عن الاستقبال العربي للكلاسيكيات[١٢].

أما على المستوى المحلي، فكما مثل إليوت الدور الفاعل في أوروبا وأمريكا في الاهتمام بالدراسات اليونانية واللاتينية في العصر الحديث، كان لطه حسين هذا الدور، إن لم يكن أكثر، بالنسبة لمصر.

ومن هنا انتقل إلى المحور الثاني وأبداه بإصرار طه حسين على إدخال اللغتين اليونانية واللاتينية في التعليم الجامعي، في وقت كانت فيه الجامعة المصرية القديمة شديدة المقاومة بل وحادة الرفض(١٣). يقول طه حسين:

"أنا مع ذلك مؤمن أشد الإيمان وأعمقه وأقواه بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح ولن تفلح في تدبير بعض مرافقها الثقافية الهامة إلا إذا عنيت بهاتين اللغتين، لا في الجامعة وحدها بل في التعليم العام قبل كل شيء. والأدلة على ذلك تظهر لي يسيرة هينة، وجلية واضحة. ومن أغرب الأشياء في نفسي وأبعدها عن فهمي ألا يفطن لها ولا يهتدي إليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على تدبير أمورها والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص".

ويوضح طه حسين كيف أخذ أصحاب الرأي المضاد الأمور على ظاهرها واطمأنوا إلى أن اللاتينية واليونانية عبء ثقيل لا معنى لإرهاق الشباب به ولا لتحميلهم إياه. وكانت حجتهم الظاهرية، على حد تعبير طه حسين:

"إذا كان الأوروبيون أنفسهم يريدون أن يتخلصوا منه وهم يتخلصون منه بالفعل مع أن هاتين اللغتين تتصلان بحياتهم ولغاتهم وحضارتهم أشد الاتصال فما بالنا نحن نثقل أنفسنا به ونضطر أبناءنا إليه".

ثم يعلق طه حسين على هذا الجدل قائلا:

"بهذا الحديث وفي لهجة أشد من هذه اللهجة قوبلت حين طلبت إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية القديمة إضافة هاتين اللغتين إلى مواد الدراسة في كلية الآداب، ولكني ألححت ومضيت في الإلحاح حتى أجابتني الجامعة القديمة إلى ما أردت لتستريح من إلحاحي عليها لا لتحقق رأيا اقتنعت به واطمأنت إليه".

كانت حجة طه حسين في المطالبة بإدخال هاتين اللغتين حجة قوية يتطلبها واقع التاريخ المصري(١٤)، فقد خضعت مصر لحكم اليونان والرومان عشرة قرون متتالية لا يمكن إلغاؤها من تاريخنا الوطني بحال من الأحوال، ولما كانت مصادر تاريخ تلك الفترة هي مصادر يونانية ولاتينية، ولما كانت مصر حتى في العصور الإسلامية دائمة الاتصال بالبيزنطيين، ومصادر التاريخ لهذا الاتصال يونانية

ولاتينية، لذا رأى طه حسين أن من يمانع في دراسة هاتين اللغتين إنما يقضي على المصريين بأن يجهلوا تاريخهم وألا يعرفوه سوى عن طريق الأجانب.

مضافا إلى ذلك قناعة طه حسين بأن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التي لا يمكن إهمالها ولا الاستغناء عنها. وعلى هذا الأساس يؤكد طه حسين:

"فإذا لم يكن لنا بد من أن نسلك إلى الرقي العلمي سبيل غيرنا من الأمم الحية فليس لنا بد من أن نعلم هاتين اللغتين القديمتين لبعض الشباب المصريين الذين يهيئون أنفسهم لبعض فروع التعليم العالي. وإذا قصر التعليم العام في ذات هاتين اللغتين فقد عجز عن أداء مهمته ولم يحقق الغاية التي أنشىء من أجلها والغرض الذي طلب إليه".

ولعل من الحجج القوية أيضا التي ركن إليها طه حسين "أن هناك مرافق مصرية أساسية يقوم عليها الأجانب منذ بدأت نهضتنا الحديثة ونريد وتريد كرامتنا واستقلالنا أن نهيء شبابنا للقيام على هذه المرافق في يوم من الأيام. فمصلحة الآثار المصرية يقوم عليها الأجانب إلى الآن ولابد من أن ينهض المصريون وحدهم بأعبائها في يوم من الأيام. ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا وجد المصريون الذين يحسنون هاتين اللغتين القديمتين قبل أن يبدأوا تخصصهم في علوم الآثار... وتاريخ مصر نفسه قد نهض بكتابته الأجانب إلى الآن، ولم يشارك المصريون مشاركة خصبة منتجة إلا في تاريخها الحديث فأما تاريخها القديم وتاريخها أيام اليونان والرومان وتاريخها في العصور الإسلامية فما زال المصريون فيه مبتدئين والذين ابتدأوا منهم درس هذه الأقسام من تاريخنا الوطني إنما ابتدأوه في كلية الآداب وبعد أن تعلموا اللاتينية واليونانية".

ومن هنا يرى طه حسين أن إتقان هاتين اللغتين هو الوسيلة الجادة والأهم لإحياء التاريخ المصري والقومية المصرية.

وبعد هذا العرض الرصين من جانب طه حسين لوجهة نظره المتبصرة لأبعاد الموقف يقول بلهجة تتسم بنوع من الحدة:

"فالطريق أمام مصر واضحة، وهي حرة في أن تسلكها إن أرادت الاستقلال العلمي، وفي أن تتجنبها إن رضيت لنفسها ما هي عليه الآن من الهوان والاستخذاء أمام الأوروبيين".

بهذه الرؤية لموقف طه حسين، انتقل إلى المحور الثالث والأخير في هذه الدراسة وهو الرؤية الدرامية لنشأة الدراسات اليونانية واللاتينية في مصر من خلال دراسة مسرحية *"معيز البهنسا"* لأحمد عتمان.

قدلا يلتفت قارىء *"معيز البهنسا"* لتأمل الرؤية الدرامية الواردة بها عن نشأة الدراسات اليونانية واللاتينية في مصر، على نحو ما صاغها أحمد عتمان، فقد ينجذب القارىء إلى أمور أخرى تتعلق بمعيز البهنسا، وبردية سوفوكليس المفقودة، وبعلم البردي بصفة عامة، وبالمسرحيات الساتيرية، وبالاكتشافات والحفائر الأثرية في مصر، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تهم الكثيرين من القراء المتخصصين، والتي أثارتها المسرحية(١٥). ومع ما لهذه الموضوعات من أهمية إلا أنني سبق أن قمت بطرحها منذ سنوات في دراسة نقدية بعنوان: "التمرد الثقافي في *معيز البهنسا*". ولكن اهتمامي في الدراسة الحالية موجه إلى نقطة أخرى محددة وهي فكرة نشأة الدراسات اليونانية واللاتينية في مصر، وتكييف هذه الفكرة للكتابة الدرامية. ولعل أهمية هذا الموضوع تكمن في معرفة كيف يمكن لعمل درامي أن يوظف أطروحة ثقافية على قدر عال من الأهمية والجدية، على نحو ما كان كتاب طه حسين المذكور آنفا.

تتعلق مسرحية *"معيز البهنسا"* بمناسبة لها أهميتها على مستوى العالم، ففي عام ١٩٠٧ عثرت بعثة الاستكشافات الإنجليزية، وعلى رأسها عالمان من جامعة أكسفورد، هما جرنفل وهنت، على بردية في البهنسا تحوي أربعمائة بيت من مسرحية ساتيرية يونانية(١٦). وهذه البردية مؤرخة بنهاية القرن الثاني الميلادي، وقد نشرها هنت لأول مرة ضمن مجموعة بردي أوكسيرينخوس في عام ١٩١٢، وتحمل رقم ١١٧٤. ومنذ ذلك الحين أعيد نشرها عدة مرات، وتمت دراستها ومناقشتها، بعد أن تم التعرف على ما جاء في البردية وتحديد نسبتها، وذلك عن طريق ظهور بيت في هذه البردية، هو في نفس الوقت مقتبس لدى أثينايوس على

أنه من مسرحية: *"مقتفو الأثر"* لسوفوكليس.

ورغم أن العنوان الذي وضعه أحمد عتمان لمسرحيته قد يبدو مؤهلا للإبانة عن حادثة واحدة هي حادثة معيز البهنسا، إلا أنه – كعادته في مسرحه الإبداعي – تحرى طريقا يتوخى الكشف عن عدة قضايا أخرى. وقد كان لأحمد عتمان التفات إلى بردية سوفوكليس، وإلى حادثة اكتشافها من مدخل آخر. فمسرحية *"معيز البهنسا"* هي الصياغة المصرية التي قدمها أحمد عتمان لهذا الحدث ولهذه المسرحية. ولعله عمد إلى ذلك ردا على المسرحية الشعرية التي نظمها الشاعر البريطاني المعاصر توني هاريسون بعنوان *"مقتفو أثر أوكسيرينخوس"*(١٧).

كيف أحمد عتمان الخط السردي الموجود في مسرحية سوفوكليس *"مقتفو الأثر"* بعد أن حذف منه ما حذف ، وأضاف إليه ما أضاف. ومن الملامح الهامة التي وضعها أحمد عتمان لصياغته المصرية لمسرحية سوفوكليس، أن ربط طه حسين بشكل مباشر بأحداث مسرحيته، على نحو ما سنرى.

تتكون مسرحية *"معيز البهنسا"* من ست لوحات. يظهر طه حسين في اللوحة الأولى شخصية رئيسة تحرك الأحداث التالية بالمسرحية، ثم يغيب عن المشهد بشخصه إلا أن روحه وأفكاره تتفاعل مع روح أحمد عتمان وأفكاره في اللوحات التالية، حتى يعود طه حسين للظهور بشخصه في نهاية المسرحية لينهي اللوحة السادسة والأخيرة. لذا سيكون تركيزي في هذا البحث على موضعين أساسيين من المسرحية: اللوحة الأولى التي ظهر بها طه حسين شخصية فاعلة مؤثرة، والمشهد الأخير من اللوحة السادسة التي وضع فيها طه حسين بصمته الأخيرة على مسرحية أحمد عتمان. ولا يعني ذلك أنني سأتغاضى عما بين هذين الموضعين من أحداث، بل أعود إليها حين تستدعي ضرورة المقارنة، أوالتدليل والتوثيق.

بالنسبة للوحة الأولى فهي بعنوان: "سنوات المخاض". ويقع مشهد أحداثها في قاعة كبيرة تتوسطها منضدة، يلتف حولها طه حسين، وشيخ أزهري، واثنان من المستشرقين هما نالينو وليتمان(١٨)، ويرأس الجلسة أحد الساسة المصريين. وقد عقد هذا الاجتماع من أجل مراجعة برامج الجامعة المصرية الناشئة. وفي هذه المناسبة يقترح طه حسين، ويدافع عن فكرة إنشاء قسم للغتين اليونانية واللاتينية، وذلك

عندما يأتي دور كلية الآداب لمناقشة لائحتها. يقول طه حسين: "ولكنني قبل كل شيء أقترح إنشاء قسم للغات الأوروبية القديمة، أي اليونانية واللاتينية". وعبارة "قبل كل شيء" يعني بها طه حسين قبل كل المقترحات التي عرضت فيما يتعلق بلائحة كلية الآداب. فمن وجهة نظر نالينو اللغات الحديثة هي الأهم: الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والعربية. بينما يرى ليتمان أن أقسام التاريخ والجغرافيا والعلوم الاجتماعية بما فيها الفلسفة، لا تقل أهمية عن أقسام اللغات الحديثة. في حين يعطي الشيخ الأزهري الأولوية لإنشاء قسم للحضارة الإسلامية، يعنى بالفتوحات الإسلامية والدولتين الأموية والعباسية.. وحضارة الأندلس.. والدولة العثمانية.

ويوشك المشهد أن يتفجر بالثورة بين طه حسين ونالينو على وجه الخصوص. فالأول لديه إحساس محتدم بضرورة تدريس هاتين اللغتين في مصر، بينما يرفع الثاني صوت المعارضة، ولكل منهما أسبابه، وهي أسباب تتأبى عندها الألفة بين التفكيرين: فالأول يسعى لصالح مصر، والثاني يستهين بوضع مصر. وحين اعترض نالينو على اقتراح طه حسين بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية بحجة عدم فهم المصريين للغات الأوروبية الحديثة ليتم التفكير في القديمة، يرد عليه طه حسين قائلا إن "أفضل وسيلة لفهم اللغات الأوروبية الحديثة هو البدء بأصولها القديمة". ثم يتساءل طه حسين مستنكرا: "ولماذا تستكثرون علينا دراسة الأصول؟"

ولعل هذا الدفاع الذي وضعه أحمد عتمان على لسان طه حسين هنا، هو ما يتردد مؤخرا في الأوساط الأكاديمية الأمريكية والأوروبية مدافعين فيه عن أهمية تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية[١٩].

ويصر الشيخ الأزهري على اعتراضه معتبرا كلمات طه حسين شطحات ينبغي أن تحذف من مضبطة الجلسة، فكلية الآداب، على حد تعبيره، يجب أن تخدم التراث القومي العربي والإسلامي. ويرد عليه طه حسين بقوله:

"قسم اللغات الأوروبية القديمة يا مولانا سيخدم التراث العربي الإسلامي أكثر من أي قسم آخر..وأنت تعرف يا مولانا أن بيت الحكمة في بغداد أنشيء لترجمة

عيون التراث اليوناني إلى العربية[٢٠]، وأن هذا المنجز انتقل إلى الأندلس، وترجم إلى اللاتينية .. وعليه قامت أسس النهضة الأوروبية الحديثة"[٢١].

ولعل هذا الحوار بين طه حسين والشيخ الأزهري يعكس ما كان قائما بالفعل بين طه حسين وشيوخ الأزهر آنذاك[٢٢]. وقد آثر أحمد عتمان ألا تفوت الفرصة دون أن يلمح إلى ذلك الموقف الذي يعكس طبيعة تفكير طه حسين.

وحين يعترض نالينو مرة أخرى، ويرى ضرورة التركيز في "المرحلة الراهنة" على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وروائع الأدب الأوروبي الحديث، يرد طه حسين، على سبيل التوبيخ، قائلا:

"أنت أول من يعلم أن هذا الأدب الأوروبي الحديث لا يمكن فهمه فهما علميا بدون العودة للأصول،أي دراسة هوميروس وسوفوكليس، ويوريبيديس، وسينيكا.. أليس كذلك؟"

بينما يرد نالينو باستخفاف:"هذا يحدث في الجامعات الأوروبية التي أنشئت منذ مئات السنين..ولكن ها نحن نتحدث عن كلية حديثة". ويضيف نالينو أن المصريين "ما زالوا في ألف باء التعليم"، وهذه العبارة تحمل قدرا غير يسير من الإهانة والاستهانة بالمصريين من جانب نالينو.

ولعلنا نلاحظ أن أحمد عتمان جعل طه حسين يرد الحجة بالحجة، دفاعا عن مصر وتراثها، حيث يقول:

"ولابد من البداية الصحيحة، ثم إن هذه الحضارة اليونانية واللاتينية دخلت تاريخنا وأصبحت جزءا من تراثنا بفضل إسهام مصر في صنع هذا التراث وحفظه، والدليل الأكبر على ذلك مكتبة الإسكندرية".

ولعل الإشارة الواردة هنا إلى إسهام مصر في صنع التراث الأوروبي هي الرابطة الضمنية لموضوع اللوحات التالية في المسرحية عن البردي المصري. وبنفس اللهجة السابقة يرد ليتمان باستنكار: "مكتبةالإسكندرية! من في مصر يعرف مكتبة الإسكندرية؟"

غير أن طه حسين لا يدع الأمور تسير على هوى ليتمان، فيقول: "إذا كان

المصريون الآن لايعرفون، فنحن ننشيء الجامعة لكي ننشر هذه المعرفة". وبذا يعترض طه حسين على نظرة الآخر لمصر، وبكل ما أوتي من قوة الإقناع يرفض هذه النظرة الدونية لمصر. ويدعم طه حسين وجهة نظره بعدة نقاط:

أولا: ترجمة سليمان البستاني للإلياذة شعرا عام ١٩٠٤،بعد أن درس الإيطالية واليونانية والفرنسية لمدة عشرين عاما(٢٣).

ثانيا: على حد تعبير طه حسين،"أن شعراءنا وأدباءنا يتغنون بالإسهام المصري في الحضارة العالمية وبالذات في الحضارة اليونانية الرومانية"(٢٤). وطه حسين بذلك يوضح استعداد المصريين بطبعهم لدراسة هاتين اللغتين، وأن الأمر ليس بجديد عليهم.

ثالثا: "إن الحفريات التي تقوم بها البعثات الأجنبية في البهنسا تدعونا للاهتمام بهذا التراث. فليس من المعقول أن يكون اسم البهنسا أو أوكسيرينخوس كما يعرفونه في الخارج مجلجلا في كل أنحاء العالم ولا يعرفه المصريون"(٢٥).

وعندئذ ينبري نالينو بالرد:"الفضل في ذلك لعلماء كبار في أوروبا..اكتشفوا برديات مهمة مثل "نظام الأثينيين" لأرسطو ومسرحيات مناندروس، فقد قاموا بفك طلاسم هذه البرديات وحققوها ونشروها.. ضيعوا عمرهم في البحث وأدوا خدمة جليلة للعلم وللإنسانية".

وبالرغم مما في مقولة نالينو من صدق الحقيقة، إلا أنها حقيقة تؤلم كل مصري يغار على تراثه القومي، مما حدا بطه حسين أن يلتقط منه خيط الحديث، مستخدما نفس النقطة لتكون من بين الأسباب التي يركن إليها مدعما وجهة نظره، فمصر بما فيها من ثروة هائلة من البردي(اليوناني واللاتيني) مؤهلة للإسهام في الإنجاز الحضاري العالمي(٢٦). يقول طه حسين:

" ولكن لماذا لا يسهم المصريون في هذا الإنجاز الحضاري وأرضهم هي التي حفظت هذا التراث. وهذه البرديات التي تملأ متاحف العالم.. كلها مصرية المنبع، والمصريون هم الأولى بدراستها ونشرها".

كل هذه إسقاطات معاصرة من أحمد عتمان مزجها بفكر طه حسين. ثم يعبر

أحمد عتمان عن حلمه، على لسان طه حسين، حين يقول:

. "أنا أحلم بهذه البرديات التي تملأ متاحف العالم، وتلك التي لم تكتشف بعد..أن تتجمع جميعا في مكان واحد على أرض مصر، ويسهر عليها المصريون يدرسون ويترجمون ويقدمون للعالم آيات من فضل مصرعلى حضارة العالم.. أحلم بمكتبة ضخمة هي الأولى وهي الأعظم في المنطقة تسطع شمسها على مياه البحر المتوسط فترتوي بنور العلم المصري وتنشره في أرجاء العالم، تروي به الأراضي القاحلة.. وتقول للأوروبيين: انهلوا من هذا العلم كما نهل أجدادكم الأقدمون".

ثم ترفع الجلسة ويؤجل اتخاذ قرار إنشاء قسم الدراسات الأوروبية القديمة، موضع الخلاف، على أساس أنه أمر يحتاج لمزيد من الحوار والدرس. وينصرف الجمع إلى الجمعية الملكية الجغرافية لحضور محاضرة نظمها طه حسين عن علم البردي: التعريف به، ومجالاته، وآفاق المستقبل أمامه. ولعل هذه المحاضرة تشكل حلقة الوصل بين ما سلف واللوحات التالية من المسرحية، والتي تتحدث عن اكتشاف البردي.

ويعلن طه حسين أن نالينو وليتمان سيتحدثان "عن علم جديد ظهر في أوروبا منذ سنوات قليلة هو البابيرولوجيا أي علم البردي". ويقترح ليتمان "ان يكون اللقاء حوارا مفتوحا لا محاضرة..". ولعل هذا الاقتراح الأخير هو الحيلة التي قدمها أحمد عتمان كي يتيح الفرصة للحوار الدرامي الذي يناسب عملا مسرحيا. ويعلق أحمد عتمان على لسان طه حسين قائلا إن هذه هي "الطريقة السقراطية المثلى في الدرس". ويبدأ طه حسين بالسؤال التالي: ما المقصود بتعبير علم البردي وما علاقته بمصر؟ ويضع أحمد عتمان على لسان ليتمان أنه بفضل البردي"أصبحت مصر بمثابة كتاب مفتوح سجل فيه كل تاريخ الدنيا"[٢٧]. ويضيف نالينو قائلا "عندما نقول بردي فنحن نعني مصر". ثم يضع أحمد عتمان على لسان طه حسين قوله عن علم البردي:

"المفروض إذن أنه علم مصري، وأن المعاهد المتخصصة فيه ينبغي أن تكون مصرية، أليس كذلك؟"

وهنا، مثلما حدث عند مناقشة اقتراح طه حسين بفتح قسم للدراسات اليونانية واللاتينية بجامعة القاهرة، أن ارتفع صوت نالينو بالمعارضة، ومرة أخرى يذكر أسباب معارضته لوجود معاهد مصرية متخصصة في علم البردي، بل ويؤكد استحالة إنشاء معاهد مصرية متخصصة في هذا العلم. ويضم ليتمان صوته إلى صوت نالينو في المعارضة على اعتبار أن كل البرديات المكتشفة توجد الآن في المتاحف الأوروبية ولا توجد في مصر بردية واحدة مما تم اكتشافه بالصدفة أو عن طريق الحفريات. ثم يضيف نالينو ما هو أهم من وجهة نظره، وهو "أنه لا يوجد في مصر من يقرأون اليونانية، ومعظم البردي المكتشف مكتوب بهذه اللغة".

ولعل هذا الاعتراض من جانب نالينو يؤكد من ناحية أخرى صحة وجهة نظر طه حسين في اقتراحه بضرورة تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، فهما ضرورتان لقراءة البردي.

وردا على استفسار من أحد الحضور عن كيفية خروج هذه البرديات من مصر، يقدم ليتمان المعلومة التالية:

"الناس هنا في البداية كانوا يكتشفون البردي بالصدفة في الزلع المدفونة في أكوام السباخ عند حافة الصحراء.. وكانوا يستخدمون هذه البرديات في صنع الشاي وفي التدفئة جنب الشادوف في الغيط أثناء ليالي الشتاء قارصة البرد. بعد كده الخواجات بدأوا يشتروا هذه البرديات بشلن وببريزة ويسافروا بها للخارج".

ويعقب طه حسين بقوله:

"ولقد علمنا الآن أن علم البردي مصري مائة في المائة من حيث المصدر..أما أن يصبح هذا العلم مصريا حقيقة.. فاعتقد أن المشوار طويل جدا.. بل ولم يبدأ بعد".

وتنتهي بذلك اللوحة الأولى، وتبدأ اللوحة الثانية ويسير الخط السردي في المسرحية من لوحة إلى أخرى، وَكلها عن مصر وبردي مصر، حتى يتم اكتشاف بردية سوفوكليس سالفة الذكر، فيقابلنا طه حسين مرة ثانية في اللوحة الأخيرة من المسرحية. وباكتشاف البردية يقول هنت:

"أنا أعتقد أن مهمتنا انتهت.. نحن اكتشفنا نصا جديدا حفظته لنا البهنسا من آلاف السنين.. مسألة شرح مضمون هذا النص وعلاقته بهذا التراث أو ذاك مسألة متروكة للدراسات المتخصصة في المستقبل..ومستقبل الثقافة أمره متروك للأجيال".

هذه الكلمات التي أوردها أحمد عتمان على لسان هنت هي تدعيم لوجهة نظر طه حسين التي عبر عنها في بداية المسرحية من ضرورة ادخال اللغتين اليونانية واللاتينية في التعليم بمصر. وعند ذكر مستقبل الثقافة يجعل عتمان الضوء مسلطا على طه حسين وهو جالس في خلفية منصة التمثيل. ويحاول أحمد عتمان أن يجعل ظهور طه حسين في نهاية المسرحية يبدو طبيعيا، فقد كان في بلده، وهي عزبة الكيلو بالقرب من البهنسا، في زيارة للأهل، وحين علم باللقاء الصحفي الذي سيعلن فيه اكتشاف بردية سوفوكليس أراد أن يسمع بنفسه تفاصيل ما حدث، وكانت سعادته بالغة بما سمع، ومن ثم أراد أن يعلن أمام الجميع من البهنسا:

"أن مصر، صاحبة الفضل في حفظ التراث الكلاسيكي، سيكون لها شان في هذه الدراسات التي تخدم التراث القومي، كما تخدم التراث الإنساني.. وستلعب هذه الدراسات دورا مهما في مستقبل الثقافة في مصر التي تمر بسنوات المخاض الآن".

في هذه العبارة الموجزة وظف أحمد عتمان عنوان كتاب طه حسين: **مستقبل الثقافة في مصر**، كما وظف عنوان اللوحة الأولى: **سنوات المخاض**.

ويختتم طه حسين حديثه بسؤال يطرحه على هنت، وهو سؤال له مغزاه بالنسبة للفكرة الجوهرية للمسرحية، وهو:

"أين البردية الأصلية؟ ألا تعرضها على الناس لكي يشاهدوها بأعينهم؟"

فيرد عليه هنت (متلعثما): "دكتور طه.. البردية الأصلية في الحفظ والصون في المتحف البريطاني، أكبر متحف في العالم، متحف الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.. لا تقلق يا طه!"

وبهذه الكلمات يسدل ستار ختام المسرحية. ويتركنا أحمد عتمان تتنازعنا مشاعر شتى، وتتلقفنا أسئلة حيرى عن مصر، وتراث مصر، وبردي مصر، بل

وحضارة مصر. ولعل رد هنت يدل على أن المصريين حرموا حتى من مجرد مشاهدة البردية بأعينهم، وعلى من يرغب في ذلك من المصريين أن يعبر القارات ويجوب البحار.

أعود الآن إلى طه حسين، ولعل عودته للظهور في نهاية المسرحية، ممثلا الما قبل والما بعد بالنسبة لأحداث المسرحية، إنما ليمد الخيط الفكري مع اللوحة الأولى التي ظهر فيها مهموما بالثقافة والتعليم في مصر، وبالبردي المصري. أي أن طه حسين هو بمثابة الإطار الخارجي الذي يحتضن أفكار المسرحية بأسرها. ولكن لماذا وضع أحمد عتمان على لسان طه حسين سؤالا في نهاية المسرحية عن مكان البردية؟ هل للاستنكار؟هل للاستفار؟ أم هو تحسر على وضع مصر، بلد البردي، وهي غير قادرة على أن تحتفظ بأهم ما عثر عليه في أرضها من كنوز البردي؟ أم هو كل ذلك مجتمعا!

الهوامش

١-يناقش الكلاسيكيون الآن ما أطلقوا عليه "المعركة الحالية" حول مكانة الكلاسيكيات في العالم الأكاديمي، انظر في ذلك:

D.Allen, "Review of C. Rocco, *Tragedy and Enlightenment: Athenian Political Thought and the Dilemmas of Modernity* (Berkeley, Los Angeles, London 1997), *CPh* 93(1998) 196-201.

Cf. Jeanne O'Neill, "Rethinking the *Cursus Honorum*", *CJ* 91 (1996) 297-307; R. B. Branham et al. (Panel Discussion), "Classics and Comparative Literature", *CPh* 92 (1997) 153 ff.; Kristina Chew, "What Does *E Pluribus Unum* Mean?: Reading the Classics and Multicultural Literature Together", *CJ* 93 (1997) 57 ff.; T. Habinek, *The Politics of Latin Literature* (Princeton 1998) 24 ff.

٢- انظر على سبيل المثال:

W. R. Connor, "The New Classical Humanities and the Old", CJ 81 (1986) 337-347.

٣- انظر على سبيل المثال:

J. Reedy, "Cultural Literacy and the Classics", *CJ* 84 (1988) 41-44.

٤- الطبعة التي استخدمتها في هذه الدراسة هي:

طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣).

عن دين الدراسات اليونانية واللاتينية في مصر لطه حسين، انظر:

أحمد عتمان، الأداب الأوروبية القديمة (الأدب اليوناني والأدب اللاتيني)، منشور في: *طه حسين.. مائة عام من النهوض العربي، مجلة فكر للدراسات والأبحاث*، العدد ١٤ (القاهرة ١٩٨٩) ص ص ٢٢٥-٢٧٦.

انظر كذلك: محمد حمدي إبراهيم، "طه حسين والثقافة الكلاسية"، منشور في: *طه حسين وتأصيل الثقافة العربية*، سلسلة أبحاث المؤتمرات رقم ٩، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة ٢٠٠٢) ٢٤٥-٢٥٦ . ثم قارن ذلك بما ورد عند كل من: أحمد أبو زيد، " طه حسين بين ثقافة بحر الروم والثقافات اللاغربية"، المجلد السابق، ص ص ٣١ وما بعدها؛ أنور لوقا، "نهضة أم نهضتان؟"، المجلد السابق، ص ص ٤١ وما بعدها.

٥- أثار عبد التواب يوسف في مقاله: "مستقبل ثقافة الطفل العربي في ضوء كتاب (مستقبل الثقافة في مصر)"، مجلد أبحاث مؤتمر: *طه حسين وتأصيل الثقافة العربية* (انظر الحاشية السابقة) ص ص ١٧٧ وما بعدها، سؤالا عن كتاب طه حسين، قد يسأله المتخصصون في الدراسات الكلاسيكية في مصرألا وهو هل مازال في هذا الكتاب ما يستحق المناقشة بعد مرور كل هذا الوقت الطويل؟ والرد بالإيجاب عند عبد التواب يوسف،مثلما هو عند أي مصري متخصص في الدراسات الكلاسيكية.

٦- انظر على سبيل المثال الدراسات التالية:

G. Lawall, & J. Barthelmess, "The Role of the American Classical League in Promoting Dialogue within the Classical and Foreign Language Teaching Professions", *CJ* 75 (1980) 330-334; C. A. Rubino, "One Last Refuge for

Eccentrics", *CJ* 83 (1988) 240-244.

٧- عاش إليوت في الفترة من ١٨٨٨ إلى ١٩٦٥. وهو أمريكي المولد، بريطاني الجنسية، وبالإضافة إلى كونه شاعرا وناقدا فهو أيضا كاتب مسرحي.

٨- على حد تعبير ماهر شفيق فريد عن إليوت:
"إنه مغروس حتى النخاع في التراث الإغريقي-الروماني"، انظرماهر شفيق فريد: "سبع مقالات عن الكلاسيات"، *أوراق كلاسيكية*، العدد الرابع، تحرير أحمد عتمان (القاهرة، ١٩٩٥)، ص ١٦١.

9- T. S. Eliot, "Tradition and the Individual Talent", (1919),in: *Selected Essays* (London, Faber & Faber 1932).

مما زاد من تاثير رأي إليوت فيما يتعلق بدور التراث في الأدب التكييف المكثف للمادة الكلاسيكية من قبل أدباء كبار معترف بهم في الأدب الحديث أمثال باوند Pound، وييتس Yeats، وجويس Joyce. انظر في ذلك:

Connor (1986) 337 f.; J. P. Sullivan, "Critical Continuity and Contemporary Innovation", in I. Jong & J. P. Sullivan (eds.), *Modern Critical Theory and Classical Literature*, (Brill 1994) 11 ff.

١٠- عن الصراع الحالي بين الثقافة العالية المثالية (أي الكلاسيكية) والثقافة الشعبية (وخاصة الأفلام السينمائية)، انظر:

Maria Wyke, *Projecting the Past: Ancient Rome, Cinema, and History* (Routledge 1997) 5ff.

11- Gilbert Highet, *The Classical Tradition* (London 1949).

12- Lorna Hardwick & Christopher Stray (eds.), *A Companion to Classical Receptions*, (Blackwell 2007).

انظر الفصل الحادي عشر من هذا المجلد:

Ahmed Etman, "Translation at the Intersection of Traditions: The Arab Reception of the Classics", pp. 141-152.

Cf. M. Bradford, "Review of M. Reinhold, *Classica Americana: The Greek and Roman Heritage in the United States* (Wayne State Univ. Press 1984)", *CJ*, 81(1986) 355-356.

١٣- عن مناهضة تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية في جامعة القاهرة، انظر:
محمد حمدي إبراهيم (٢٠٠٢) ص ٢٤٨.

١٤- انظر أحمد عتمان (١٩٨٩) ص ص ٢٢٦ وما بعدها، ٢٣٣ وما بعدها.

١٥- من أجل قراءات متعددة لمسرحية *"معيز البهنسا"*، انظر:
يوسف الشاروني، *الآذان في مالطة*، المجلد الثامن، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥) ص ص٢٢٣- ٢٣٢: " قراءة في *معيز البهنسا*". انظر كذلك: "أربع قراءات في *"معيز البهنسا"*، يوسف الشاروني، ماهر شفيق فريد، سيد عمر، يحيى عبد الله" ، *الكتاب السنوي الخامس للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية*، تحرير أحمد عتمان (القاهرة، ٢٠٠٥) ص ص ٣٩٤ -٤١١.

١٦- عن المسرحيات الساتيرية، انظر:
ماجدة النويعمي، التمرد الثقافي في مسرحية *"معيز البهنسا"*، قيد النشر.

17- Tony Harrison, *The Trackers of Oxyrhynchus* (Faber & Faber, London 1990).
انظر الدراسة التالية:

Lorna Hardwick, Translating Words Translating Cultures (Duckworth 2000)

في الفصل الأول بعنوان: " معارك الترجمة"، تقول المؤلفة (ص ١٢) إن النصف الثاني من القرن العشرين شهد ثلاثة اتجاهات رئيسية في الترجمات المنشورة للأعمال الكلاسيكية. وأحد هذه الاتجاهات عدم التمييز بين أنواع مختلفة من الترجمات، والتكييفات ونماذجها الأقدم. ويتضح هذا بصفة خاصة في الاستخدام الدائم للصور الكلاسيكية، والنصوص، والأساطير، من قبل الشعراء وكتاب المسرح مثل توني هاريسون، وغيره.

١٨- المستشرقان نالينو وليتمان من أساتذة طه حسين في الجامعة المصرية، وقد نشر أحمد عثمان الوثيقة الأصلية التي خطها طه حسين ورفعها لرئيس الجامعة المصرية في ٢٤ إبريل عام ١٩١٢ لأداء الامتحان في بعض المواد التي درست بالجامعة في عامي ١٩١٠-١٩١١، ١٩١١-١٩١٢، ومن بينها دروس الأستاذ نالينو في تاريخ أدب اللغة العربية (مشاهير أدباء العرب في القرون الأربعة الأولى)، ودروس الأستاذ ليتمان في اللغات السامية. انظر في ذلك: أحمد عثمان، " لمحات من حياة الرواد: طه حسين"، *أوراق كلاسيكية*، العدد الرابع، *الرواد ومائة عام من الكلاسيكيات*، تحرير أحمد عثمان (جامعة القاهرة، ١٩٩٥)، ص ٢١.

١٩- انظر:

Lawall (1980) 330 ff.; D. H. Porter, "The Thread of Ariadne: The Classics and the Twentieth Century", *CJ* 79 (1984) 347 ff.

عن دور اللغتين اليونانية واللاتينية في ثقافتنا، وكيف تخدم الكلاسيكيات بصفة عامة تراثنا القومي، انظر المقدمة الثرية التي وضعها أحمد عثمان لكتاب: *أثينة السوداء،الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية*. الجزء الأول: تلفيق *بلاد الإغريق ١٧٨٥-١٩٨٥*، تأليف مارتن برنال، ترجمة مجموعة، تحرير أحمد عثمان، المشروع القومي للترجمة رقم ١٦، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، ١٩٩٧)، ص ص ٥٧ وما بعدها.

٢٠- انظر في ذلك:

عز الدين إسماعيل، *في الشعر العباسي*، المكتبة الأكاديمية (القاهرة، ١٩٩٤)، ص ص ١٨٩ وما بعدها. انظر أيضا: عثمان موافي، *التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري*، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية، ٢٠٠٦)، ص ص ١١٢ وما بعدها.

٢١- انظر:

أحمد عثمان، "من اليونانية إلى اللاتينية عبر العربية: دراسة حول تبادل الثقافات بين العرب وأوروبا عبر الأندلس و صقلية، *أوراق كلاسيكية*، العدد الثاني (القاهرة، ١٩٩٢) ص ص ٧-٣٥

Ahmed Etman, "Greek into Latin through Arabic", *JOAS* vol. 9 (1997-1998) 29-38.

ل. رانيلا، *الماضي المشترك بين العرب والغرب*، *ترجمة نبيلة ابراهيم*، عالم المعرفة، العدد ٢٤١ (الكويت ١٩٩٩)، ص ص١١-١٣.

عثمان موافي، "الترجمة بين حضارتين العربية والغربية في العصور الوسطى"، *مجلة كلية*

الآداب، العدد ٥١ (٢٠٠١-٢٠٠٢)، ص ص ٣٤.

٢٢- عن موقف طه حسين المعارض للأزهر، انظر: أحمد أبو زيد (١٩٩٨) ص ٣٧.

٢٣- انظر المقدمة التي وضعها جابر عصفور لطبعة سليمان البستاني، *الياذة هوميروس، معربة نظما*، المشروع القومي للترجمة أرقام: ٧١٢-٧١٣، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة ٢٠٠٤). أولى أحمد عتمان اهتماما كبيرا بترجمة البستاني للإلياذة، وعلى حد تعبيره هو "اهتمام متجدد بهذه الترجمة"، انظر: أحمد عتمان،عرض لكتاب: *الياذة هوميروس*": ترجمة سليمان البستاني، *أوراق كلاسيكية*، العدد الرابع، تحرير أحمد عتمان (القاهرة، ١٩٩٥)، ص ص٥١١ وما بعدها. انظر كذلك المقدمة التي وضعها أحمد عتمان للترجمة العربية الحديثة *للإلياذة*: هوميروس، *"الإلياذة"*، تحرير ومراجعة وتقديم أحمد عتمان، المشروع القومي للترجمة، رقم ٧٥٠، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، ٢٠٠٤)، ص ص ٥ وما بعدها.

٢٤- هذه الكلمات التي وضعها أحمد عتمان على لسان طه حسين هي ما عبر عنه تفصيلا في الدراسة التالية:

Ahmed Etman, "Classical Studies and their Influence upon Creative Literature in Egypt and the Arab World", *JOAS* vol. 3-4 (1991-1992) 68-74.

٢٥- يقول روبرتس:

C.H. Roberts, "The Greek Papyri", in: *The Legacy of Egypt*, ed. S. Glanville (Oxford 1943) 250:

إنه بالتأكيد لا يوجد موقع سينافس ثروات أوكسيرينخوس التي كافأت رواد هذا الحقل، وهما جرنفل وهنت، فكنوز البردي التي خرجت من أوكسيرينخوس كانت بمثابة المكافأة لهذين العالمين. وبهذه الكنوز بدأ في العالم ما يطلق عليه " عصرنهضة صغير".

٢٦- عن أهمية البردي المصري في دراسة تاريخ مصر والإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، انظر: مصطفى العبادي، *الإمبراطورية الرومانية: النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية*، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية، ١٩٩٥) ص ص ٢٩ وما بعدها.

٢٧- يقول روبرتس في دراسته عن البردي المصري إن هذا البردي هو المادة الخام التي منها أعيد بناء حضارة. بل ويعترف بوضوح، في ختام دراسته، قائلا: "هذا تراث ندين له حقا": Roberts (1943) 253, 282.